



26 أكتوبر 2008

المؤرخ الشهير بيتر جران يكتب في تأبين رءوف عباس:

هل يمكن الجمع بين مؤرخ مصري وأريك هيسباوم؟

ينظم المركز القومي للترجمة في السابعة من مساء اليوم ندوة لتكريم اسم المؤرخ الراحل رءوف عباس، تركز علي دوره في الترجمة يشارك فيها الدكتورة نيللي حنا وناصر إبراهيم والمفكر شوقي جلال، وقبل أيام نظمت الجمعية التاريخية ندوة لمناقشة إنجازات الراحل في حقل الدراسات التاريخية.

هنا مساهمة مهمة قدمها في الندوة المؤرخ الأمريكي الشهير بيتر جران، صاحب الكتاب المهم «الجزور الإسلامية للرأسمالية»، الذي أشرف المؤرخ الراحل علي مراجعة ترجمته التي قام بها محروس سليمان، ونشرتها دار الفكر، قبل نحو عشرين عاما، كما شاركه الراحل في ترجمة كتاب آخر هو «ما بعد المركزية الأوروبية» مع عاطف أحمد وإبراهيم فتحي.

والمساهمة تجمع بين الذاتي والموضوعي في تقييم عمل المؤرخ الراحل أعترف أن قولي اليوم قد لا يكون له موضوعية كبيرة لأن رءوف كان صديقي وزميلي ومنذ سنوات تكويني وإلي الآن أجد اسمه علي غلاف كتيبي أو في الشكر الواجب بالداخل لما قدمه لي من مساعدة. وعندما تأملت في حياته العلمية قفز إلي ذهني سؤال وهو: هل يمكن أن أقرن رءوف بغيره من المؤرخين من قبله..؟. والجبل في مفهومي لا يعني نفس العمر وإنما يعني نفس فكر التكوين العلمي - الأكاديمي والعصر السياسي الذي ظهر فيه أبناء الجيل الواحد. وهنا خطر ببالي أن أقرنه بآثنين أحدهما الإنجليزي وهو إيريك هيسباوم والثاني الأمريكي يوجين جنوفيسي.

فمن الملاحظ أن ثلاثتهم كانوا من الرواد في مجال التاريخ الاجتماعي من الناحية العلمية، من الناحية السياسية، عاصروا نهاية عصر الرأسمالية الإنتاجية وبداية الرجوع إلي الرأسمالية المالية أي نهاية العقد الاجتماعي وبداية عصر الانفتاح.

وقوفر التحول من عصر إلي عصر فُرساً جديدةً للمؤرخين واستفادت مجموعة منهم استفادةً كبيرةً من تكيفهم وقبولهم للجديد، ولكن تحفظ عدد منهم في عدة دول وهم الذين لم يتكيفوا أو رفضوا الجديد، فأصبحوا مهمشين، والذين طلبوا شيئاً مقابل قبولهم للجديد كانوا نادرين بل لمحبوا كالدكتور رءوف دوراً فكرياً مهماً.

كما كون كل مئلتاة مدرسة تاريخية وهذا أيضاً كان شيئاً نادراً جداً، بالإضافة إلي أنهم كانوا نقادا للنظام السياسي في بلادهم. ولم يشكل هؤلاء الثلاثة مدارس فكرية في الوسط الأكاديمي بسهولة.. فمثلا كانت في مصر عدة مدارس تاريخية عبر التاريخ الحديث: كانت هناك مدرسة ملكية، ومدرسة وفدية ليبرالية ونلاحظ أن هاتين المدرستين كانتا مرتبطتين بمراكز القوة، وهذا بالاختلاف تماما عن مدرسة التاريخ الاجتماعي لنا اليوم.

أتناول الآن النموذج الأول من المؤرخين الثلاثة، أريك هيسباوم وهو من مواليد الإسكندرية 1917 واسم والده في الأصل استبوم ولكن القنصل الإنجليزي في الإسكندرية أخطأ وسجل اسمه هيسباوم.

عاش هيسباوم في وقت تدهور حزب العمال الإنجليزي، ووقت تدهور دولة الرفاهية، أي وقت الانتقال من الرأسمالية الصناعية إلي الرأسمالية المعروفة the tcherisn. وأنداك وجدنا بعض المؤرخين في إنجلترا قد أيدوا هذا الانتقال، وانتقدوا البعض الآخر ورفضوا التكيف معه. وقد كتب هيسباوم في أحد من أبرز كتبه عن الجزور الرأسمالية المالية وهذا الكتاب اسمه "عصر رأس المال 1848-1870" مطبوع في 1975. وفي هذا الكتاب يقدم هيسباوم آراءه عن القومية والهجرة والعلم ويعطينا صورة سلبية للرأسمالية في القرن التاسع عشر في بلده. وهذه الصورة ليست بعيدة عن صورة الرأسمالية في مصر الموجودة في كتاب د / رءوف "النظام الاجتماعي".

علي أن التشابه بين هذين الكتابين تشبه تطابقي لأن مصر كانت أيضاً في حالة الانتقال من الرأسمالية الإنتاجية إلي الرأسمالية المالية أو الرأسمالية المضاربة، أي الانفتاح الذي كان أساساً لصالح كبار الملاك الذين عادوا إلي ساحة

النشاط الرأسمالي الفردي . وقد كانت محاولة رجوع كبار الملاك إلي المسرح في مصر قد حدثت بالضبط ما بين حادث كمشيش 1965 وحرب 67 وهذا كان أيضاً وقت تكوين د. رعوف وبعض زملائه كالدكتور عاصم الدسوقي والدكتور علي بركات والدكتور عبد الرحيم وغيرهم من المؤرخين المشهورين .

والآن أتناول كتاب رعوف (النظام الاجتماعي في ظل الملكيات الكبيرة) 1973 ففي هذا الكتاب صور الدكتور رعوف الملك كجزء مهم من تاريخ مصر الحديث ولكن ليس كجزء من التاريخ القومي (السياسي) فقد بدأ كتابه بعام 1837 أي بعد زمن إصلاحات محمد علي وتوقف عند 1914 أي قبل ثورة 1919 .

وهذا الكتاب رد علي سؤال كان من كبار الملاك، ما نظام ملكية الأراضي الزراعية في القرن التاسع عشر، وما المصادر التي نعرف منها حجم الملكية الزراعية وأساسها .؟ وكان الرد علي الجزء الأخير من السؤال أنه لا بد أن نعتمد أساساً علي الأرشيف المصري الخاص بمكلفات الأقطان الزراعية . وكان رده علي الجزء الأول من السؤال أن كبار الملاك كانوا مجموعة أفراد من الحكام والموظفين الكبار، ومن شيوخ القبائل ومن الأجانب وغيرهم من الذوات.

وفي القرن التاسع عشر كانت هذه المجموعة أو الطبقة قد نشأت مع نشأة السوق الدولية، وكانت هذه المعلومات التي أوردها رعوف في كتابه معرفة جديدة حتي فيما يتعلق بالمفاهيم .  
صحح أن التحليل الطبقي كان موجوداً من قبله عند الشيوعيين ولكنهم أخطأوا في تطبيقه في أشياء كثيرة، نظراً لأنهم لم يستخدموا الأرشيف . ومن هنا فقد صحح كتاب الدكتور رعوف أفكار الشيوعيين الخاطئة عن الإقطاعية في مصر . لقد كانت مصر بلداً رأسمالياً واستخدمت الرأسمالية الكائنات الإقطاعية الموجودة من قبلها .

كما صحح الكتاب الفكر السائد عن الطبقة الحاكمة . فقد كانت هذه الطبقة بالحقيقة أجنبية ومصرية في نفس الوقت وليست أجنبية فقط ونتيجة لذلك فمن الصعب أن يلجأ الباحث علي مفهوم الرأسمالية الوطنية في النظر إلي طبيعة الملكية الزراعية الكبيرة في مصر الذي يتعلق بوضع آخر لم يكن قائماً في مصر في القرن التاسع عشر، وهي فترة كتاب رعوف . كما صحح الكتاب أيضاً موضوع الصراع الطبقي الذي كان قائماً في الريف مع الرأسمالية في المصانع وفي المدن . والدليل علي هذا أنك تجد في الأرشيف إلي الآن نموذجاً من الصراع في عقود الإيجار ما بين أصحاب الأرض والفلاحين ومن المعروف في كتب الشيوعيين أنك تجد الصراع الطبقي عند العمال فقط . إلي آخره

...  
أتحول الآن إلي النموذج الثالث أي المؤرخ الأمريكي يوجين جنوفيسي، وهو من مواليد 1920 وصاحب كتب كثيرة عن موضوع العبودية في جنوب أمريكا وكان أهم كتبه " the world the slavowners rave " الدنيا المتكونة لأصحاب العبيد " مطبوع 1969 والسؤال الأساسي في هذا الكتاب يدور حول كيفية العلاقة بين وجود العبودية والإقطاعية ونشأة الرأسمالية . وقد تكون هموم جنوفيسي قريبة من هموم الدكتور رعوف حيث ناقش جنوفيسي دور ما يسمى plintmtion society مجتمع العزبة التي لعبت دوراً جنباً إلي جنب مع الصناعة في شمال أمريكا .

وقد صرح جنوفيسي بأن جنوب أمريكا قبل الحرب الأهلية كان نموذجاً من نماذج مجتمع العزبة الناضج وقصد بهذا أنك تجد في جنوب أمريكا فلاسفة العبودية وقد درس جنوفيسي أحدهم وهو جورج فترز هو الذي عاش (1806-1881) وقد كتب هذا الرجل كتاباً مهماً في ذلك الوقت بالعنوان "cnnibels all on slaves without masters " الذين يأكلون لحوم البشر أي العبيد بلا أصحابهم " . وقد ناقش فترز في هذا الكتاب الظروف في الجنوب والشمال قبل الحرب الأهلية وقال إن نظام عبودية الأجر في الشمال أسوأ من عبودية البشر في الجنوب فليس كتاب جنوفيسي دفاعاً عن نظام العبودية بل هو نقد لموقف الحزب الشيوعي في أمريكا . فقد قال جنوفيسي إن التفسير الشيوعي مبني علي فرضية أن الجنوب عائق للشمال وهذا خطأ واضح . والحقيقة أن الرأسماليين الأمريكيين استخدموا العبودية .. وهذا هو نفس الشيء عند الدكتور رعوف .

والخلاصة أن هؤلاء المؤرخين الثلاثة هبسوم، وجنوفيسي، والدكتور رعوف أصبحوا كلهم معروفين بتحليلاتهم المكتوب في عصر تدهور الرأسمالية الصناعية ولكلهم كان الانتقال إلي الانفتاح شيئاً صعباً جداً، فمثلاً أصبح هبسوم بعد 1980 بمقراطياً ولأول مرة، وأصبح جنوفيسي قومياً جنوبياً ومتديناً في الثمانينات، وقد استنقى الدكتور رعوف سيطرته علي قدرته لمواجهة الظروف الجديدة ومركزاً نقده علي الفساد في التعليم وعلي الطائفية المصطنعة كما ورد في كتابه عن جامعة القاهرة وفي سيرته الذاتية (مشيناها خطي)

كلمة الخاتمة:

لما أفكر في حياة الدكتور رعوف وغيره من المؤرخين المهين ألاحظ أن المؤرخ المهم هو مثقف ملتزم مرتبط بالتحويلات السياسية والاقتصادية في بلده علي الأقل لجزء من حياته وأنا أنتظر الآن في مصر أن تواجه مع صخور في الحياة المعاصرة ستنتج جيلاً جديداً كجيل الدكتور رعوف

[http://www.elbadeel.net/index.php?option=com\\_content&task=view&id=35089&Itemid=39](http://www.elbadeel.net/index.php?option=com_content&task=view&id=35089&Itemid=39)